أول سبتمبر سنة ١٩٣٢
ربيع الثانى سنة ١٣٥١

المعرفة

الجزء الخامس
السنة الثانية

مجلة — شهرية — جامعة
لصاحبها وناشرها ومحررها المسئول
عبد العزيز الإسلامبولى

المجلد الثالث | شعارها : اعرف نفسك بنفسك | العدد ١٧

سعد زغلول

المثل النادر بين الرجال الخالدين

[كتبت يوم ٢٣ أغسطس ١٩٣٢ ، لمناسبة الاحتفال بإحياء الذكرى الخامسة لوفاته]

رجولة سعد . . .

وقف المؤرخ الألمانى (أميل لدوج) حيال قبر (نابليون) فى (الانفاليد Invalides) قبل أن يكتب رسالته المستفيضة عنه ـ وكانت المقبرة زاخرة بجماهير الوافدين عليها من كل فج ، لتشهد هذه الرموس التى تضم أجداثاً ما تزال أسماء أصحابها داوية فى كل أذن ، جارية على كل لسان ـ فكان من شأن (لدوج) أن هتف بهذه الجماهير ـ وهو يشير بكلتا يديه إلى مقبرة الامبراطور العظيم ـ قائلا : « أيها السادة : طأطئوا رءوسكم ، فهذا هو الرجل . . ! ! »

وها هى ذى الرواية بنفسها تنتقل من باريس لتشهدها فى القاهرة ؛ فكلما وفد على قبر « سعد » وافد ، وكلما انتهى إلى ضريحه زائر من أى جانب من جوانب الأرض ، لا يستطيع إلا أن يردد الكلمة الرائعة التى تخيرها (لدوج) ، فيقول لأولئك الذين تحتشد بهم مقبرة « سعد » فى كل ساعة من سواع النهار : « أيها السادة : طأطئوا رءوسكم فهذا هو الرجل ! » ؛ ذلك لأن رجولة « سعد » كانت طليعة ميزاته ، كما كانت باكورة خصائصه جميعاً .

وإذا كانت رجولة (نابليون) قد اكتملت له فى تلك المرحلة التى أراد فيها اجتياز سهول (الألب) لينال أطماعه من إخضاع (روما) لنفوذ الفرنسيين ، بينما كانت هذه السهول

مستعصاة ـ حتى على الرواد الذين أرادوا اجتيازها فى أناة واتئاد ـ ؛ وإذا كان ذلك الرجل الفرنسى قد بلغ فى تلك المرحلة غاية الشأو من أحلامه ومن أمانيه ؛ فان رجولة « سعد » قد اكتملت له فى المرحلة التى اندفع فيها ـ وكان شاباً موفور الشباب ـ مع الذائدين عن وطنه فى ثورة عرابى ... حتى إذا ما انتهت الثورة ، وانتهى معها ذلك الدوى الذى أحدثته فى كل جانب من الدنيا ، بقيت هذه الرجولة تحفز « سعداً » إلى أن يتخير الفرصة السانحة للهتاف بأمانى أمته ، والنداء بتقرير مصيرها وتحقيق مكانها بين الشعوب ... حتى إذا ما واتته الفرصة السانحة بعد الحرب ـ وكان الرجل قد جاوز مراحل الفتوة ، وسن الشباب والقوة ـ لم يجد من نفسه ما يمنعه من احتقار العسف ، وازدراء الجبروت ، ومحاربة القوة الغشوم ، والهتاف بهذا الأمل الذى بقى حتى اليوم فواراً دوياً ، جامحاً قوياً .

هذه الرجولة فى « سعد » لم تكن وليدة التصنع ، ولا ربيبة الانفعال الوقتى ؛ وإنما كانت بعض نفسه ؛ وإنما كانت واحدة من جوارحه التى درج معها وخلقت معه .

وهذه الرجولة فى « سعد » هى التى مكنت له أن يقود الجماهير ، لأن الرجل الكامل لا يستطيع أن يستطيب لنفسه جانباً من جوانب الضعف ، وإنما يتخير صفات الرجولة الواضحة الصريحة ليطلع بها على الجماهير ، حتى يعلم كل فرد أنه المثل الكامل ، وأنه القدوة المنشودة .

وهذه الرجولة فى « سعد » هى التى أتاحت له أن يتعرف إلى كل شىء ، وأن يكون عرفانه لكل شىء قائماً على حقيقة واحدة ، هى قياس الأمور قياساً منطقياً صادقاً بعيداً عن المغالاة ، حتى يضمن لأمته وجوه الفوز فى كل ما يلابس من هذه الأمور ، وحتى ينأى بأمته عن هذه الوجوه الغامضة التى لا تنفتح عن يسر ، ولا تفصح عن ظفر .

وهذه الرجولة فى « سعد » هى التى حببته إلى مواطنيه ، وحببته إلى كل شرق ، وحببته إلى كل أمة تنشد الحياة حرة طليقة ، لأنها خلعت عليه إهاباً من القوة حين يريد أن يزأر ، ولوناً من الامتناع حين يريد أن يسمر ، وفيضاً من السداد حين يريد أن ينتقم ويثأر .

وهذه الرجولة فى « سعد » قد واتته ـ آخر الأمر ـ بألوان من الخصائص ، فيها ما يستطيبه الرجل المثقف ، وفيها ما يلذ رجل الشارع ؛ وتلك ميزة « الرجل الكامل » الذى يستطيع أن ينفذ برسالته إلى الشغاف ، ويدع لها فى كل قلب مستقراً .

والخلاصة أن رجولة « سعد » كانت أميز ميزاته ، وأطيب خصائصه ، لأنها أجدت عليه حياة كلها صراحة ، وكلها نفع ، وكلها خير .

صراحة سعد ...

أما صراحة « سعد » ، فحسبك منها تلك الثورة الهائلة القوية التى مزق بها ستر المستعمرين ، والتى ثلم بها كل عاطفة من عواطفهم الشريرة المستورة ... حتى إذا ما شاء أن يطلق على

خصومتهم لقباً يعرفهم به إلى الأجيال، ويقدمهم به إلى مواطنيه وإلى غير مواطنيه من مختلف الشعوب ، لم يكن من شأنه أن يجازف بالحق فى ذمة الخصومة ، وإنما أطلق عليهم لقب « الخصوم الشرفاء المعقولين » ؛ وحسبك من هذه الصراحة أن ينصف الرجل من ضعف أمته ذلك الضعف الحربى الذى لا تستطيع معه أن تقهر الانجليز بغير سلاح الحق ، وسيف الحجة..!

وإذا كانت هذه الصراحة قد استغلها بعض المواطنين فى حياة « سعد » ، وإذا كانوا قد حملوها أعباءاً من الزراية والتحقير ؛ فما من ريب فى أنها بقيت – حتى اليوم – جماع القول السديد ، لأن أحداً من رجال السياسة لم يقل عن خصومة الانجليز إلا أنها خصومة شريفة ، ولم يدع إلى قتالهم بالمدفع والسيف ، لأن مصر يأبى عليها القدر الساخر، بل يأبى عليها الاحتلال الباطل والقوة الغشوم إلا أن تكون فى وجهة الحرب مهيضة الجناح .

وحسبك من هذه الصراحة أن « سعداً » لم يكن من أولئك الذين يصبرون على القذى، أو من أولئك الذين يكظمون الغيظ ، وإنما كان يجرد لسانه على خصومه وأشياعه على السواء، لأنه يريد من خصومه أن تكون خصومتهم قائمة على دعامة من الصدق ، ويريد من أشياعه أن يكون انتصارهم له وليد عاطفة صادقة لا فائل معها لمصلحة منشودة ، أو أمنية مرتجاة .

وحسبك من هذه الصراحة أن « سعداً » لم يكن من أولئك الذين لا يغتفرون الذلة ، ولا يضعون أيديهم فى أيدى أعداء الأمس القريب ، وإنما كانت قسمة الخيرة الجليلة تنشد الوحدة والاتحاد ، وتنشد معهما الصدق فى القول ، والاخلاص فى العمل . . . وأولئك الذين كانوا يستمعون إلى « سعد » خطيباً يقرع خصومه بالكلمات اللاذعة ، أو يقرءون له كاتباً يقذف على رءوسهم صيباً من النار المحرقة، ويمسك بتلك الرءوس ليدفع بها إلى جوف البركان.. أولئك قد أدهشهم من « سعد » أن يكون معهم فى أخريات أيامه على خير ما يكون الصديق الوفى حيال صديقه الوفى ، وعلى أحسن ما يكون الرجل للرجل إخلاصاً ووداً . . . ولكنها صراحة « سعد » ، قد ألزمته هذا الموطن حين رأى فيه الخير لوطنه كل الخير .

سياسة سعد...

وإذا كانت هذه الصراحة من «سعد» قد حققت له حياة لا غموض فيها ، ولا ستر عليها، فإنه قد عرف – مع ذلك – كيف يداير رجال السياسة فى ذلك الأسلوب الذى يتذرعون به تأييد الجماهير ، ذلك أنه كان يخاطب الناس على قدر عقولهم ....!

وما نريد فى هذه العجالة أن نقص عليك المثل المستفيضة ؛ وإنما نريد أن نقص عليك بعض المثل : فقد استمع « سعد » إلى أحد الخطباء الذين وفدوا عليه من الريف فى جماعة من الفلاحين ، وكان الخطيب « الريفى » يؤدى خطبته بكلمات عامية لا أثر فيها لتزويق القول أو تنميقه . . . فلم يكن من «سعد» إلا أن خطب أيضاً..وإلا أن تكون خطبته هى الأخرى « عامية » لا يجرى فيها التشبيه إلا مع المحراث والزرع، ولا يقتنص فيها الاستعارة إلا من

صميم الاصطلاحات التي يستعملها الريفيون حين يتحدثون !! فأى أثر أبلغ من هذا الذي أثرت به هذه الخطبة «العامية» في تلك النفوس الساذجة التي انطلقت إلى «سعد» لتشهده وتسمع إليه . . ؟

وبينا كان « سعد » يستقبل الوفود الوافدة عليه لتهنئته برئاسة الوزارة ، وبينا كان يخطب وفداً ـ قدم عليه من «دار العلوم» ـ خطبة فيها كل ما وسعته اللغة العربية من ألفاظ ساحرة ، وكانت آسرة ، إذا بفناء « وزارة الداخلية » يضيق بهذه الجموع التي انتهت إليه من طبقة « الحوذية » ، وقد زينوا جيادهم ، واحتملوا في أيديهم الأعلام ... ثم مضى خطيبهم يزاحم العواصف في صوتها الأجش ، ويهتف بـ «سعد» إلى أن يعمل على إلغاء (الترام) لأنه يعوق طائفته عن الكسب .. وأن يعمل على إلغاء بعض القيود التي قيدهم بها رجال الأمن ، لأنها تعوقهم عن السبح في شوارع العاصمة .. ! أترى أن « سعداً » حقق لهم ما يأملون فألغى (الترام) وقص أطراف تلك القيود ! ؟ أم ترى أنه قد جابههم بالحقيقة المرة ، فتركهم يغادرون فناء الوزارة ، وقد خلعوا الزينة عن خيولهم احتجاجاً على الزعيم . . ؟ إنه لم يحقق لهم أملا ، ولم يدفع إلى وجوههم الكآبة ، وإنما أخذ يتشكى معهم ويتندر في القول . . حتى أنستهم الفكاهة آمالا جساماً شاءوا أن يحققوها .. فتركوا دار الوزارة هاتفين .. ! وهكذا يكون أسلوب السياسيين !!

سعد الخطيب ...

وأما «سعد الخطيب» فالحق أن القول كله ينفد دون أن يبلغ الكاتب من أداء هذه الميزة ما يريد . . ! ذلك أن « سعداً » لم يكن خطيباً من خطباء المنابر حتى تتجرد مواهبه من ميزة الابتكار ، ولم يكن كذلك خطيباً من خطباء «المناسبات» المعروفة في المآتم والأفراح ، حتى يضع لهذه المناسبات كلماتها التي لا تتغير ولا تتبدل ، وإنما كان الخطيب الذي يطلق لسانه في كل موطن ليأخذ عنه « وحي الساعة » ، فأى خطيب كان ؟ وأى سحر فيه ؟

كان صوته قوى النبرات ، فيه سحر ، وفيه أسر ، وفيه سلاسة ، وفيه انسجام ، وفيه جاذبية ، وكان ـ إلى ذلك ـ صوتاً طيعاً لا ينساق عن عى ، ولا يمضى عن تلكؤ ، وإنما كان الزوبعة حين يهدر ، والعاصفة حين ينطلق ، والموج حين يدوى ، والنغمة الساحرة حين يستقر ! .

وكانت الألفاظ تزدحم في هذا الفم القوال ، وعلى ذلك اللسان الجوال . فلا تستطيع أن تقف «سعداً» ـ حين يقول ـ على موضع من مواضع الفهاهة ، أو الفأفأة ، أو الصمت في غير أوانه . أجل : إنك لم تكن لتستطيع الوقوف على شيء من ذلك مهما حاولت ، وقد حاول ذلك كثيرون غيرك من قبل ، ومنهم كاتب هذه السطور ، فلم يفلحوا وآبوا بخفي حنين ، ورجعوا إلى أشياعهم رجوع موسى إلى قومه غضبان أسفا ، ذلك لأن كلمات «سعد» كانت تمضى إلى الآذان متتبعة كالحلقة المفرغة آخذ بعضها برقاب بعض ، حتى إذا ما استقرت في الآذان ، وانتهت إلى الأذهان ، تلفت الباحث ليعد ما فيها من مواقف النبو عن موضع الهدف ، فاذا به لا يقف على شيء ، لأن « سعداً » كان يدرى موقفه حتى في الساعة التي يهدر فيها هدير الأسد حين يريد التهام الفريسة !! .

وإنى لأذكر أنه وقف مرة يخطب إثر عودته من مفاوضة (مستر ما كدونلد)، وبينا كان منطلقاً كالسهم، ماضياً كالقذيفة، إذا به يعثر عثرة لغوية واحدة لم يأبه لها ـ لأنها من ذلك النوع الذي يحتمل المستمعون أشباهه من ألسنة الخطباء ـ، ولكنه لم يرض لنفسه، حتى أمثال مواقف الزلل، فعاد إلى هذه الكلمة، يعقب عليها بتصحيح ظريف، معقباً عليه بقوله: (مش كده يا مشايخ؟!!)

ولو لم يكن «سعد» يدرى موقفه حين يخطب، ولو لم يكن من أولئك الذين لا يفلت زمامهم من أيديهم، أكانت هذه الزلة ـ على تفاهتها ـ تنال منه هذا الجهد، وتدعوه ـ فى ذمة تصحيحها ـ إلى هذا العناء؟

وإذا كانت هنالك من حجة تصور لك تأثير خطب «سعد» فى سامعيه، فخير لنا أن نسوق إليك حجة فيها سذاجة، وفيها طهر، ولكن فيها عبرة وأى عبرة.

كان الفقيد العظيم يخطب فى (نادى سيروس) وكان يصور للجماهير تصريح ٢٨ فبراير بأنه كالناقة التى وضع صاحبها فى رقبتها حذاء، ثم مضى بها إلى السوق، وكانت الناقة على شىء من الجمال والقوة، فلما أراده الأعرابى «أن يشتريها، وأن يساوم صاحبها الثمن المعقول، كان أن قال صاحبها له: «إنها دون هذا الحذاء المعلق فى رقبتها لا تساوى إلا جنيهاً واحداً، وأما هى مع الحذاء فلا تساوى أقل من ألف جنيه»، وليس من شك فى أن الأعرابى لا يريد الحذاء، وإنما يريد الناقة، وهكذا قال لصاحبها: (طيب ما تاخذ الجنيه وتشيل الحذاء)، فأجاب صاحب الناقة: «لن أبيعها إلا معه»، فعقب عليه الأعرابى متحسراً: (والله! الناقة كويسة بس لوما كانش ـ فى رقبتها ـ الملعونة!!)

قص «سعد» هذه القصة ثم ضحك.. ثم دوى المكان كله بهذا الصوت الهائل الذى أحدثته أكف المصفقين، ثم سكت الناس، ولكن هذه «الضحكة» لم يكن أثرها الساحر قد غادر واحداً من المستمعين.. فما كاد «سعد» يعود إلى القول حتى وقف هذا الذى ما تزال «الضحكة» مؤثرة فيه، وقال فى نغمة عصبية حادة:

ـ الله يا باشا! دانت ضحكتك حلوة! حلوة قوى والله؟!!

ألا يدل هذا على أن تأثير «سعد» كان التأثير الذى يلهب النفوس؟!

وما لى لا أزيد القول صراحة ووضوحاً وجلاء، فأقول لقراء «المعرفة»: إن كاتب هذه السطور، كان من أولئك الذين يعارضون جنود «سعد» أوفر معارضة، ويتميزون من سياسته فى إحدى مراحلها ـ غيظاً، حتى إذا ما أتيح لى أن أذهب إليه كارهاً فى ليلة كان يخطب فيها الجماهير تمجيداً لعيد الجهاد الوطنى عام ١٩٢٣ ـ فلما أن بدأ يخطب دلفت عواطفى المتأججة خصومة له إلى الفرار، ولما أن اكتمل سحره فى القول والتوجيه رأيت معارضتى له تنال من نفسى مكاناً غير محمود، حتى إذا ما تركت الحفل صحبة صحب لى: وددت لو أن الأثير لا يعيد إلى أذنى تلك الكلمات التى فاض بها لسان «سعد»، ذلك اللسان الذى لم تبخل المقادير عليه بما فى طوق اللغة أن تؤديه من ألفاظ الاعجاب والتقدير، ووددت لو ظل «سعد» طيلة

الدهر صامتاً لا يقول ، ما كنا لا ينطلق لسانه ، لأن «الغيظ» قد أوحى إلى قصي أن قوذ «سعد» قد هيأ له هذا السحر يزجيه من فيه ، فإذا هو لا يزيد في خصومه ، وإنما يدفع إليه في كل «خطبة» أنصاراً أوفياء.

ثم ماذا ؟ ! ثم تبدو لنا ظاهرة رائعة في «سعد الخطيب» ، هي أنه كان يغذي نفسه بالخطابة ، حتى إذا انطلق في مستهل حديثه إلى الجماهير متثاقلا بادي الضعف، يستأذنهم في أن لا تزيد خطبته عن دقائق معدودات : فإذا انطلق ، وإذا انطلق ، كانت هذه الدقائق ساعات بأكملها ، بل إنه ليحدث أن يكون «سعد» يوم المؤتمر الوطني الذي عقدت فيه أواصر الائتلاف عام ١٩٢٦ ، ليحدث أن يكون في هذا اليوم – وقبل أن يأزف موعد الحفلة بدقائق – مريضاً مسجى على سريره كأنه يستقبل وصول الموت ، بينما كان أنصاره يبكون ويترجمون من حوله ، حتى إذا ما تمشى «سعد» وأسر إليه في أذنه بأن المؤتمر قد أصبح على أبواب الانعقاد ، أترى أن «سعداً» بقي «بيت» في سريره ؟ كلا ! إنه تركه متثاقلا، وارتدى ملابسه متثاقلا، وذهب إلى المؤتمر متثاقلا، ولكنه حين أخذ يلقي على المؤتمرين خطبة الافتتاح ، كان قوياً حين يجأر ، وكان عنيفاً حين يندفع ... حتى لقد تهامس أولئك الذين كانوا من حوله يبكون من ساعة واحدة : «أية قوة جبارة بل أية معجزة تلك التي أتاحت لهذا الشباب أن يعاود الرئيس ، بل الشيخ الكبير ؟ !» .

سعد الأديب ...

وأما «سعد الأديب» ، فما نحن لنا أن نستهل القول في بحث خصائصه من هذا الجانب ، قبل أن نقدم في صراحة وصدق ، أن هذا البحث يدق على قادره الأقلام ، ودقيق الأفهام ، لأن «سعداً» في ناحيته الأدبية مدرسة جامعة : فيها لكل طامع ما يحقق له كل أطماعه ، وفيها لكل منقب ما يوفر له النجاح في جهوده التي تمهد لها التنقيب والدرس والاستقصاء والتحليل.

جمع «سعد» بين ميزات «الأديب» و«المفتي» ، فكان أديباً مبتكراً يوحي قلمه إلى الناس رسالة الخلود ، وكان له العقل الخصب الذي يقود إلى قلمه «المواضيع» الجديدة ليدبجها في تلك الصورة الساحرة التي عرفت بها رسائله .

ولم تكن هذه الميزة فيه وليدة الحقبة الأخيرة من حياته ، وإنما كانت مؤتلفة معه منذ الساعة التي عرف فيها كيف يكتب ، وفي تلكم الرسائل البليغة التي نشرها خلال نصف قرن في «الوقائع المصرية» حين كان يحررها صحبة المرحوم الأستاذ الامام الشيخ محمد عبده .

في هذه الرسائل ما يغني الباحث عن التلفت إلى اقتناص الدليل الحاسم ليدعم به هذا الرأي المقول ... فقد كانت هذه الرسائل جامعة لألوان من البحوث الدقيقة في الشرائع والاجتماع ، وكانت آراء «سعد» فيها هي الآراء التي ما تزال موضع العناية من جماهير المفكرين حتى اليوم ؛ وإذا أنت علمت أنه كتبها في صدر شبابه ، وفي أول مرحلة صاحب فيها الجماهير ، راعتك منه تلك العبقرية الكاملة التي احتواها عقله الرشيد .

وكان «سعد» ـ مع ذلك ـ منشئاً فذاً ، يتخير الألفاظ المصقولة ليقدم بها المعنى المعقول ، ويتعهد الجمل الرشيقة فيصبها فى قالب من الجمال والامتاع والفتنة ، دون أن يتجه بهذا الأسلوب الأخاذ إلى غير ما تحتمله طبيعة الفكرة التى يدعو إليها .

وفى هذا كله ما يحقق لنا أن « سعداً » كان « أديباً » يساير المنطق ، وكان « منشئاً » يتأثر التجويد ، ويقتنص الطرائف من بين القديم والجديد .

وإلى جانب هذه الميزة التى عرف « سعد » كيف يحرص عليها جهده ، نرى أنه ـ فى أسلوبه الكتابى ـ لم يكن من أولئك الذين يعيشون فى ظل الاستعارات ، يمدون إليها أقلامهم ، فلا تعود إلى القرطاس إلا بالفكرة المعقدة ، والجملة المعقدة ، وإنما كان يبغض « الاستعارة » ولا يهتف بها ، ولا يدعو إليها . . وكان « سعد » يحبب إلى قلمه أن يجول حين يكتب ، وأن يتبسط فى القول ، وهذا أثر من هذه الثروة اللفظية التى اكتنزها فى رأسه ، بل هو أثر من خاصة الخطابة فيه ؛ لأن الخطابة ـ وقد تعودها فى أخريات أعوامه ـ كانت جماع ما فى ذهنه من ألفاظ ، ولأنها قد أثرت فيه حتى أصبح من شأنه ـ حين يريد أن يكتب ـ أن يستحضر موقف الخطابة ، فيملى على كاتبه ما يريد أن يقول .

سعد المحدث . . .

وإنه لحق صريح أن يعود إلى « سعد » وحده فضل عمل جليل ، هو ذلك الذى رفع به من أسلوب المحدثين ، ومن أسلوب السياسيين ؛ فقد كان فى أحاديثه الرجل الذى لا يعرفه العى ، ولا يتأثره التعقيد ، ولا تسعى إليه الركاكة ، بينما كانت هذه الخصائص المرة كل ما فى أساليب المحدثين والسياسيين من قبله ، وقد كان فى كتاباته الرجل الذى ترك خلفه هذه الجمل المؤتلفة من كلمات ، إن دلت على شىء ، فانما تدل على فقر فى الأداء ، وعدم فى التوجيه ، وفاقة فى تنويع الحديث ، وعجز فى تقريب المعنى المنشود إلى ذهن القارىء تقريباً يحمله على الايمان به فى صدق ويقين ، أو التألب عليه فى صدق ويقين أيضاً .

سعد المناظر . . .

كذلك كان « سعد » مناظراً معدوم النظير ، فقد كانت أحب الساعات وأطيبها لديه ، وأبقاها فى نفسه ، وأدعاها إلى تقديره وحرصه ، تلك الساعات التى يمضى فيها إلى محدثيه فى جدل ينطوى على بحث يشذبون أطرافه ، ويقتحمون عليه الأبواب ، لينتهوا منه إلى الجوهر واللباب .

والواقع أن « سعداً » كان يمثل الطليعة بين رجال الجدل والمناظرة فى العصر الحديث ، لأنه ـ كخطيب رائع يعنى بتوجيه حديثه توجيهاً موفقاً ـ كان لا يسأم الجدل ولا يمله ولا يتبرم به ، وكانت الأدلة الحاسمة تنساق من لسانه كالقذائف ، وكانت تمضى إلى أسماع محدثيه عفو الساعة ، لأنه أوفق خطيب زاول الارتجال .

على أن « سعداً » لم يكن ينقله فى جدله إلا أن يجاهد مع من يجادله فى تقريب الفكرة

المعقولة إلى ذهنه ، ذلك أن الحقائق حين لا تجد من يؤمن بها إيماناً سريعاً ، إنما تدعو من يقول بها إلى السأم والملال .

وأكبر الظن عندى أن براعة « سعد » فى الجدل إنما كانت أثراً من آثار تلك « الجلسات » التى كان يمضيها فى (صالون البرنسيس نازلى هانم) أيام شبابه . . . فقد تميزت هذه الجلسات بما تتميز به جلسات النوادى الأدبية من تنويع فى الحديث ، ومن تنويع فى البحوث ...

ولقد أثرت هذه « الجلسات » فيه أثراً آخر حيث مكنت له أن يكون (عاميا) جم السداد فى ما يضطلع به من أعباء الدفاع ... وتسألنى كيف كان ذلك ؟ فأقول لك إن الحديث فى مثل (صالون البرنسيس) كان لا يجرى إلا بين الصفوة المختارة من عظماء المصريين ، وأنت تعلم أن أحاديث العظماء فى القرن التاسع عشر وفى طليعة القرن العشرين كانت لا تأخذ مكانها فى موطن اللهو إلا بمقدار ما تروح به عن جمود البحوث العويصة فى الأدب والعلم ، وما يتصل بالأدب والعلم من ذيول وأسباب .

وما من ريب فى أن صالون (البرنسيس نازلى هانم) قد أتاح لسعد أن يسجل طائفة من مواهبه الكمينة ، ويذيع زمرة من آرائه السديدة ، ويفشى فى من يختلف إليه وجوه مستقبله العظيم ... وما من ريب فى أن هذه المواهب ـ وحدها ـ هى التى حببت إلى (البرنسيس) أن تسعى جهدها حتى يصاهر «سعدا» وزير الدولة الأول المرحوم « مصطفى فهمى باشا » ، لأنها رأت فيه الرجل الكفء ، ورأت فى مستقبله ـ بثاقب رأيها ـ المستقبل الساطع الوضاء .

والواقع أن « سعداً » كان الزوج الذى خلصت نفسه من شوائب الصغار ، فلم تذكر له « أم المصريين » يوماً عبوساً ، ولا ساعة قاتمة ، ولا لحظة من لحظات القلق والتبرم والضيق ، على الرغم من فقدانهما سوياً تلك الآصرة ـ آصرة الأبوة ـ التى تجمع بين الزوجين سواء أكان اجتماعهما عن صفاء وحب ، أو عن كراهية وبغضاء .

وإذا كان الفقيد قد أبت عليه الأقدار أن يكون أباً لولد ، فان الله قد أفاض عليه وعلى زوجه العظيمة كل السلوى ، إذ وفر لهما أسباب الاستبسال فى خدمة أمة بأكملها خدمة صادقة ، فجعلت لهما من كل مصرى ولداً خالص الود ، صادق الوفاء .

أثر سعد ...

أما أثر «سعد» فى الشرق ، فانه أثر الزعيم العظيم فى نفوس أشياعه المخلصين ، وأما أثره فى مصر ، فحسبه هذه الذكرى ـ وهى الذكرى الخامسة لوفاته ـ أن تكون منار مأتم كبير موزع فى كل جانب من جوانب المدن والريف ... وأن يكون هذا المأتم منار حديث مستفيض يتجدد عن « سعد » ، فتذكره الألسنة فى كل فج بين التأثر والحماس ، وفى ظل الضراعة إلى الله أن يوفر عليه رضوانه ، ويقرب إلى جواره مكانه .

عبد العزيز الاسلامبولى